حَيَاةُ السَّرْد في «سِيرة حَياتي» لعبد الرَّحمن بدَوي

(دراسةٌ في الموضوع وفي الفنّ)

محمد شمس عُقاب

باحثٌ بمركز المخطوطات

مكتبة الإسكندرية

من شُرُفات متعددة، يُطلُّ علينا عبدُ الرحمن بدوي[1]. وها هي شرفة أخرى جديدةٌ، من شرفاته العديدة، نراه منها، شرفة السيرة.

في «سيرة حياتي»[2] غرابة وامتياز، وفيها أخبارٌ لم يذكرها إلا هنا. وفيها قَعْقَعَةٌ وجلَبةٌ وهدير. وفيها حماسةٌ ملتهبة، وأحاسيس ملتهبة. وفيها أشياءُ غير ذلك.

ولماذا ندرسها؟ لأن هذه السيرة تفاصيلُ حياة عَلَم بين أعلام الثقافة العربية الشاهقة. يُهمنا أن نرقب منها ابتداءها واكتمالها، وتفاصيلَ عناصرها. إن "السيرة الذاتية ليست سيرة الأعمال والأحداث نفسِها، ولكنها سيرة إنسانٍ يعمل. وعلى ذلك تكون الشخصية قبل

---

(١) عبد الرحمن بدوي (١٩١٧ – ٢٠٠٢م) ولد في قرية شَرَباص التابعة لمركز فارسكور بدمياط لوالدٍ هو عمدةُ قريته، وكان الخامس عشر من بين ٢١ شقيقًا وشقيقة، نال شهادة البكالوريا من المدرسة السعيدية بالجيزة سنة ١٩٣٤، ثم تخرج في قسم الفلسفة بكلية الآداب، جامعة فؤاد الأول (القاهرة فيما بعد) سنة ١٩٣٨، حصل على الدكتوراه في موضوع (الزمان الوجودي) سنة ١٩٤٤ ناقشه فيها الدكتور طه حسين. انتقل من جامعة فؤادٍ الأول بعد أن بلغ درجة أستاذٍ مساعد إلى جامعة إبراهيم باشا (عين شمس فيما بعد) ليؤسس قسم الفلسفة بكلية الآداب سنة ١٩٥٠. في يناير ١٩٥٩ عُيّن أستاذ كرسي. شغل منصب أستاذ الفلسفة في جامعات طرابلس، وطهران، والكويت، والسوربون، واختير أستاذًا بالكوليج دي فرانس، وكان ذلك مصدر فخرٍ له. عمل مستشارًا ثقافيًّا ومدير البعثة التعليمية في بيرن في سويسرا منذ مارس ١٩٥٦ حتى نوفمبر ١٩٥٨. اختير عضوًا في لجنة الخمسين التي كتبت دستور مصر سنة ١٩٥٤. له عشرات التآليف في الأدب والفلسفة والأخلاق وتاريخ الفكر اليوناني، فقد ألَّف عن نيتشه وأفلاطون وأرسطو واشبنجلر وشوبنهاور، وألَّف عن المنطق الصوري، والتصوف في الإسلام، ومذاهب الإسلاميين، وضع كتابًا عن الأدب الألماني في نصف قرن، وجمَعَ موسوعةً عن المستشرقين، وكتب كتابين آخر حياته بالفرنسية في الدفاع عن محمدٍ صلى الله عليه وسلم، والدفاع عن القرآن. وله علاوةً على ذلك ديوانا شعر. حقق كتاب أرسطو في المنطق، وكتاب الخطابة له بالترجمة العربية القديمة. كما أن له عشرات الترجمات عن اللغات التي كان يجيدها كالفرنسية والإسبانية والألمانية والإنجليزية والإيطالية واليونانية واللاتينية، وكان حريصًا على ترجمة عيون الأدب العالمي كاللصوص لشيلر، ودون كيخوته، وفاوست لجيته، وتراجيديات سوفوكليس وإسخيليوس. كما ترجم دراساتٍ للمستشرقين حول صحة الشعر الجاهلي، ودراساتٍ أخرى في النقد التاريخي. نال جائزة الدولة التشجيعية في الفلسفة الإسلامية سنة ١٩٦١، وجائزة مبارك في العلوم الاجتماعية سنة ١٩٩٩. (انظر في ترجمته الكتابَ موضوع هذه الدراسة: سيرة حياتي، للدكتور عبد الرحمن بدوي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط١/ ٢٠٠٠م، وانظر أيضًا: عبد الرحمن بدوي: فيلسوف الوجودية الهارب إلى الإسلام، لسعيد اللاوندي (مركز الحضارة العربية بالقاهرة ٢٠٠١م)؛ وعبد الرحمن بدوي: دراسات مهداة في عيد ميلاده الثمانين، بإشراف الدكتور أحمد عبد الحليم عطية، (الهيئة العامة لقصور الثقافة ٢٠٠٢م).

(٢) سيرة حياتي، للدكتور عبد الرحمن بدوي (المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط١/ ٢٠٠٠م).

الحدث، الشخصيةُ في تطوُّرها، وأثرُ الحدث الخارجيِّ في تحريكها، فالأحداث رموزٌ على مسار الشخصية، رموزٌ توحي إيحاءً، ورموزٌ تتجمَّعُ لتفتح لنا مغاليق الشخصية، وتُشير إلى منعطفاتها"[(١)]. إنَّ سيرة عبد الرحمن بدوي أدبٌ دفَّاق حيّ، وفرعٌ متجددٌ نما من بين أحضان السير الذاتية العربية.

وهذه الدراسة هي الأولى التي تتناول سيرة عبد الرحمن بدوي في علميَ القاصر، فمغفرةً إن اعتراها ما يعتري أمثالَها من عيب ونقص. وكيف لا يكون! والسيرة الذاتية في الدراسة الأدبية لا تزال تحتاج إلى مزيدٍ من التنظير والاستقصاء والبحث[(٢)]، سواءً أكان ذلك في أدبنا العربي القديم أم الحديث[(٣)].

---

(١) السيرة تاريخٌ وفن، للدكتور ماهر فهمي حسن ص٢٢٤ (مكتبة النهضة المصرية، ط١/ ١٩٧٠م).

(٢) انظر: في طفولتي: دراسة في السيرة الذاتية العربية، لتيتز رووكي ص٥٧ (ترجمة طلعت الشايب، المجلس الأعلى للثقافة، ط١/٢٠٠٢م).

(٣) السيرة الذاتية نوعٌ سرديٌّ قديم الظهور عند العرب، فقد نُقلت إلينا نصوصٌ منه منذ القرن الأول للهجرة، منذ أن حكى سلمان الفارسيُّ قصةَ إسلامه، مرورًا بنُصَيْبٍ الشاعر، وإبراهيم الموصليّ، وابن الهيثم، وابنِ سينا، وعبد اللطيف البغدادي وغيرهم؛ ولكنَّ هؤلاء لم يكتبوا سوى قِطَعٍ متفرِّقةٍ من السيرة لذواتهم، لا تبلغُ إحداها أن تكون سيرةً مكتملة. ولم يقتصر الأمر على هذه القِطَع، بل ظهرت رسائل فيها حديثٌ عن النفس عند محمد بن زكريا الرازي في بعض رسائله، وأبي حيَّان التوحيديّ في "الصداقة والصَّديق"، وابن الجوزي في "لَفْتَة الكَبِد". وظهرتْ كتبٌ تذكر سِيَرًا لأصحابها، كـ"طوق الحمامة" لابن حزم الذي خصَّه بجانبُ الحُبّ من حياته. ومن الكتب التي عرضت جانبًا واحدًا من الحياة أيضًا كتابُ المؤيَّد في الدين داعي الدُّعاة الفاطميّ الذي أصفاه للجانب السياسي، ومثله في هذا الجانب سيرة الأمير عبد الله بن بلقين من ملوك الطوائف في كتابه "التِّبيان". ونمضي قليلاً فنجد الغزاليّ قد وضع كتابَه "المُنقذ من الضلال" ليعرض فيه تجربتَه الصوفية، ويضعُ عمارةُ اليمنيُّ كتابَه "النُّكتَ العصريَّة" ليعرض فيه تجربته السياسية. ثم يأتي أسامة بن مُنقذ ليكتب لنا سيرة حياته في كتابه "الاعتبار" مازجًا إياها بالتاريخ والفوائد والأخبار التي يُستنبط منه العبرة والعِظة. ولعل آخر بذور السِّيَر العربية التي وصلتْ إلينا كتاب "التعريف بابن خلدون ورحلته شرقًا وغربًا" التي كتبها بنفسه وجعلها ذيلاً على تاريخه. أما في العصر الحديث فلعل السِّيَر العربية قد تأثَّرت بالغرب بأكثر ما كانت امتدادًا للتراث القصصي الذاتي العربي القديم، ويَعُدُّ إحسان عباس سيرة أحمد فارس الشِّدياق "الساق على الساق" أولَ السير الذاتية في العصر الحديث، حتى إن كانت الغاية من الكتاب لغويةً كما قال صاحبه في المقدمة. أما "تلخيص الإبريز" لرفاعة فعُدَّ إرهاصًا للسيرة الذاتية؛ لأن ذاتَه كانت محتجبةً، وكان يُغفل العناصر الروائيَّةَ إغفالاً تامًّا. أما في القرن العشرين فنجد سيلاً من السير الذاتية ينفجر في مصر والعالم العربي، من أشهر أصحابها محمد كُرد علي في آخر الجزء السادس من كتابه "خُطط الشام"، وطه حسين في "الأيام" التي صبَّها في قالَبٍ روائيٍّ، وبضمير الغائب. وقد نالت سيرتُه من الشُّهرة والعناية ما لم ينلْه غيرُها من السِّيَر. أما أحمد أمين فقد سلك المذهب التقريريَّ الوصفيَّ في سيرته "حياتي"،
=

لقد حرَصتُ أن لا تكون الدراسة عشواء، شأنَ بعض من تناول السيرَ الذاتية، يخرج القارئ منها بخفَّي حُنين، حينئذ درسْتُ ما ظننتُه جديرًا بالعناية، وخاصة جانب الأسلوب الذي طالما أُهمل. وإنَّ مما أزعُمُه جديدًا في هذه الدراسة، هو دراسة ما خلَّفته السيرة وراءها من أثر.

وجعلتُها في ثلاثة أجزاء: أولها في مضمون السيرة، رأيت أن أُخْلِصَه لمسائل هي: مكمن السيرة وخلاصتها المميِّزة لها. وأسهبت في الحديث عن قضية الإسهاب عند بدوي. ثم أخذت أنظر إلى ذات الدكتور من خلال السرد. وأبنتُ بعد ذلك عن الحب الذي حَيَاهُ بدوي. ثم عن غاية السيرة. ثم عن ذوقه وثقافته، وتأثراته في السيرة. وفي الجزء الثاني كان للأسلوب مكان. إذ شرحتُ لغة بدوي، وأظهرت عناصرها البارزة من سخرية وتعجب وفكاهة... وفنون أخرى. ورصدت ما ورد من جمل تسويف فعللت لها. ثم عرضت لاستخدام الدكتور علامات الترقيم. أما الجزء الأخير فشمل الآراء التي بزغت بعد تداول الكِتَابِ، على اختلاف توجهاتها. ثم حديثًا كان لابد منه في المصادر التي استقى منها بدوي في كتابه. وليس ما مرَّ نهايةَ البحث، ولكنه رأيٌ من آراء كثيرة يمكن أن تقال فيه.

أولاً: رُوحُ السِّيرة (دراسة في المضمون):

١- مكمن السيرة:

بين الفلسفة واللغة يكمن هذا الروحُ الوثَّاب، «بالصدفة أتيتُ إلى هذا العالم»: بدايةٌ فلسفيةٌ في افتتاح سيرة حياة بدوي، أستاذ الفلسفة المرموق. ثم تفارقنا السيرة بهذه الأبيات:

=

فلم تظهر شخصيتُه في الأحداث ظهور شخصية طه حسين. وكتب العقادُ سيرتَه في كتابين "أنا"، و"حياة قلم"، متَّبعًا فيهما أسلوبًا ثالثًا هو الأسلوب التحليليّ، المعتمد على التفسير والتعليل والاحتجاج العقليّ. (انظر الفصلَ الأول من كتاب: السيرة الذاتية في الأدب العربي، لتهاني عبد الفتاح شاكر، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط٢٠٠٢/١م، وفن السيرة، للدكتور إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ط١٩٩٦/١م).

شـــكوتُ إليـــكَ يـــا خيَّـــا طُ مِـــــنْ حَـــــالي بطَهْـــــرانِ
أَتَيْـــــتُ لـــــدرْسِ مَخْطُـــوطٍ وَظَبـــــــيٍ غُصْــــــنُهُ دَانِـــــي
فَضَـــاعَ اليَـــوْمُ فـــي المخْطُـــو طِ دُونَ الظَّبْـــــــــي والبَـــــانِ
فَـــلاَ «شـــيْرينُ» تَبْسُـــمُ لِــــي، ولاَ «زَهْـــــــرًا» تَمنَّـــــــانِي
وَلاَ مـــــــالٌ لأَبْذُلَـــــــهُ، وَلاَ سِـــــــنٌّ (الجُوَانَـــــــانِ)

وفسر (الجوانَان) في آخر حاشية هذا التفسير: «جمع: جوان = شاب، فتى – بالفارسية» [٢/٣٨٣](١).

وبين الفلسفة واللغة عاش بدوي، فقد أكلا منه ربيعَ حياته، وخريفَها. وقد وجد فيهما العزاءَ من كُل فقْد: زوجةٍ، أو منصبٍ أو اعترافٍ. ووجد فيهما التفرُّد والامتياز عن كُل أبناء جيله، فألقى بروحه بين تلك الغياهب.

٢- الإسهاب والاستطراد:

إنَّ مما سيدركه القارئ هذه السيرةَ الإسهابَ، والاستقصاءَ الشَّديدَ الذي سوَّد صفحات كثيرة من الكتاب. والاستقصاء عند بدوي ألوانٌ:

فثَمَّ استقصاءٌ في (الوصف)، ولْنستمعْ إليه وهو يرسم لوحةً لبلْدته شرباص:

«والمنظر الطبيعي في شرباص رائعُ الجمال: في الصيف أو في الشتاء.

فما أجمل حقول الأُرْز إبان الصيف طوالَ النهار، وما أبدع نقيق الضفادع فيها إبان الليل... كذلك يؤنسك في الليل صوت النواعير بنغماته الحادة، وكأنه لحن الأنشلُّو في أوبرات فجنر...

ونبات الأذرة، وما أدراك ما نبات الأذرة! أوراقٌ عريضة طويلة خضراء تتفرع على طول

(١) أشير إلى مواضع ما أنقله من السيرة بين المعقوفين. وقد حرَصْتُ عند الاقتباس من هذه السيرة على نقل كلام بدوي كما ورد فيها ضبطًا وكتابة.

ساقي القصبة...

أما في الشتاء فحقول البرسيم الأخضر الغامق، وحقول القمح الخضراء في الشتاء، المصفارّة في أوائل الربيع، الذهبية في أيّار، فلها سحرها هي الأخرى، وإن يكن أقل فتنةٍ من سحر مزروعات الصيف.

ذلك هو النجم لـ – النبات بغير سيقان – أما الأشجار فتتناثر في كل موضع: أشجار التوت في الأجران، وحول السواقي. أشجار النخيل في صفوف طويلة...

وأنواع الطير لا حصر لها: من العصافير، والزرازير، والحمائم، حتى الهداهد والحدأة والصقور...

والوفرة الهائلة من الحشرات الطائرة والزاحفة والماشية تجعل المرء يعجب من خصوبة البيئة...

ناهيك بالنيل وانحناءاته الرشيقة عند شرباص، وما يتفرع عنه من ترع وقنوات... » [١/١١-١٢].

واستقصاءٌ (تاريخي) يملأ أرجاء السيرة، نقرأ له –مؤرّخًا فترة من فترات قسم الفلسفة– هذه الفقرة:

«وأعود إلى الدراسة في قسم الفلسفة، فأقول: إن القسم كان آنذاك وقبل ذاك يحظى بعددٍ من أئمة الأساتذة الفرنسيين الذين توالوا فيه منذ نشأته في سنة ١٩٢٥، أذكر منهم على التوالي: أندريه لا لاند، **La lande**، واميل برييه **Bréhier**، وابل ريه **Rey**، ولوي روجييه **Rougier**، والكساندر كويريه **Koyré**، وبرلو **Burloud**».

وحضر بعض هؤلاء أكثر من فترة: إذ حضر لا لاند في العام الدراسي ١٩٢٦ – ١٩٢٧، و١٩٢٧ – ١٩٢٨، و١٩٢٩ – ١٩٣٠، ثم في الفترة من أكتوبر سنة ١٩٣٧ حتى مارس سنة ١٩٤٠. وحضر كويريه في الفترة من ١٩٣٢ إلى ١٩٣٤... حتى مارس سنة ١٩٤١. وكان من عظيم حظّي أن تتلمذت على كليهما: لا لاند في الفترة من أكتوبر سنة ١٩٣٧ إلى مارس ١٩٤٠ وكويريه في الفترتين: أكتوبر سنة ١٩٣٦ إلى مايو ١٩٣٨،

وأكتوبر سنة ١٩٤٠ إلى مارس سنة ١٩٤١. درست عليهما في مرحلة الليسانس، وأشرفا على تحضيري للماجستير» [٦٢/١].

وهذان المثالان (الصغيران!) اللذان سقتهما الآن لك، لا يعْدوان أن يكونا أثرين لأعيان تفيضُ بها (سيرة حياتي). ولولا خشية الإطالة لمثَّلتُ بغيرهما، ولكنني إكمالاً للَّوحة سأذكر مثالاً آخر طريفًا، وكأنه لمسة أخيرة في صورة الإسهاب التي ما فتئ يُعنى بها صاحبنا. إنه الاستقصاء (الفني)، وكان له في تذوُّق الفن باع:

«فلأي عجب أن تكون فيرنته [إيطاليا] كعبة الفن في العالم؟!

والكنائس فيها هي بدورها متاحف عظيمة وتحفٌ رائعة، وأقدمها معمودية القديس يوحنا **Batistero S. Giovanna** التي يقال: إنها بنيت في سنة ١٠٠٠: وهي مثمنة الشكل، ذات ثلاث طوابق، وسقفها يشبه الخيمة... ولها ثلاثة أبواب من البرونز المشغول بالنحت... والباب الشرقي فيه صورة محفورة لمشاهد من «العهد القديم» من الكتاب المقدس، وقد قال عنه ميكلنجلو أنه «جدير بالفردوس».

ويتلوها في الأهمية كاتدرائية سانتا ماريا دي فيورة... وهي من الطراز القوطي، لكنه قوطي من نوع خاص لا يحتفل بالصعود إلى أعلى، بل بالاتساع والضوء...

وثم كنائس عديدة أخرى نقتصر على ذكر أسماء أهمها: **S. Miniata al Monte** وهي على الطراز الروماني (قرن ١١ – ١٣)؛ – **S. Trinita**، وطرازها قوطي (قرن ١٣ – ١٤)؛ – **Ss. Annuziata**، وفيها سلسلة من الفرسكانات من القرن ١٦» [١٠٣/١].

والمدهشُ أن هذا البسطَ عملٌ متكرر، ونمطٌ مطَّردٌ في سرد بدوي عن (المدن) التي قُدِّر له زيارتُها. فتراه لا يكاد ينزل بلدةً إلا كتب لها تاريخًا سريعًا سلِسًا رقراقًا، وأرجو أن لا تضجر حين أنقل لك شيئًا من ذلك، ذلك أن هذه السيرة قد لا أكون مغاليًا إن زعمت أنها: (سيرةٌ للمدن!) أوَ لا يكفيك بعد هذا الزعم أن آتيَك بمثلٍ؛ سأنبيك عن نبئه بعد حين:

«ولَيْدِن[1] **Laiden** من أقدم مدن هولندة، وكانت في سنة ١٥٧٢ «قلعة» الكفاح ضد الأسبان، وتقع في مقاطعة جنوبي هولندة على مرتفع رملي في أرض من البولدر **Pulder**، في الشمال الشرقي من مدينة دن هاج (لاهاي). وعدد سكانها في سنة ١٩٧٧ هو ١٠١,٥٠٠ نسمة. وتخترقها قنوات عديدة، وتبعد عن البحر بعشرة كيلو مترات، وتقع على نهر الراين القديم. وفيها أبنية جميلة أهمها كنيسة القديس بطرس. وهي على الطراز القوطي، ثم مبنى البلدية، وقصر عتيق.

وجامعتها من أعرق جامعات أوربا، وقد أنشئت سنة ١٥٧٥، وقام بالتدريس فيها كبار العلماء، نذكر منهم يوستوس لبسيوس **Juste Lipse**، واسكاليجه **Scaliger**...

وكانت فيها صناعات عظيمة: الجوخ والصوف، ودبغ الجلود ومصانع الحديد والصلب، ومصانع...

واشتهرت منذ القرن السادس عشر بطباعة الكتب النفيسة. فقد قامت أسرة تدعى **Elzevier** بإنشاء دار للطباعة عظيمة. وأقدم أفراد هذه الأسرة هو لويس (١٥٤٠ – ١٦١٧) المولود في لوڤان (بلجيكا) ثم صارت لها فروع في...

وفي لَيْدن قامت ثاني مطبعة عربية في العالم، أنشأها فرايسيسكوس رافلنجيوس...

والشعب الهولندي كان في الأصل مزيجًا من الفريزيين والسكسون والفرنجة، وفي عهد الإمبراطورية الرومانية تدفقت عناصر جرمانية...

وكان عدد سكان هولندة بحسب إحصاء سنة ١٩٦٠ هو ١١,٤٦٢,٠٠٠، وصاروا بحسب إحصاء سنة...

والمساحة الكلية لهولندة هي ٤١,١٦٠كم^{٢}، وكلها مستوية. وتتميز بالكثبان والسدود **Dikes** التي لولاها لغمر البحر ٣٨% منها، وقد تم تحصيل هذا المقدار من الأرض بفضل تجفيف...

---

(١) التزمت بضبط الدكتور للألفاظ كما جاءت في السيرة.

والنباتات في هولندة هي نباتات الكثبان...

ومن حيث الدين تتميز هولندة بالانفصال الحاد بين البروتستنت (بما فيهم أتباع كلڤان) من ناحية، والكاثوليك... أما اليهود... وهاك جدولاً بإحصاء الأديان والمذاهب... » [١/٢٨٣-٣٠٣].

وذلك غيضٌ من فيض. ومثلَ ذلك فعل في حديثه عن مدن أخرى كثيرة: كباريس، وروما، والمدن الإيطالية، ومدن ألمانيا، وسويسرة، وطهران، وبنغازي...

فما هذا الذي يرتكبه الدكتور؟! وماذا يستطيع القارئُ جناءَه من كل تلك الحشود؟! وأيُّ رابطةٍ بين كل هذا الإسهاب بأنواعه: التاريخيِّ، والوصفيِّ، والفنيِّ؛ وبين سيرة حياته هو؟! أسئلة مجلجلةٌ، متلهِّفةٌ جوابًا.

أأحسَّ الدكتور -رحمه الله- الوَحْدةَ والمللَ آخرَ حياته، وهو الذي أنهى السرد سنة ١٩٨٨، وقد جاوز السبعين من عمره؛ فراح يناجي أوراقه، مناجاةً لا يُحب لها أن تنتهي؟

أم أنه كان يفعل ذلك إبَّان زيارة مدينةٍ، ليحقق غايتين: أن يعيش في أعماق تاريخ البلدة، حيث لا يُشبع نهمَه هذه الأشكالُ السطحيةُ المؤقتة، حينئذ تدركه نشوةٌ ليستْ تدرك غيرَه من السائحين: إنه سائح غير عاديّ؟! ومن هنا -تَبَعًا- ينفخ في رُوح (أنا) التي عربدتْ في ثنايا هذه السيرة: فأنا الذي يعلم ما لا تعلمون من شأن هذه البلدة أيها المترقِّبون، وأنا الذي أسْعَدُ من حيث لا تشعرون؟

أم أنَّ رُوح العلم -وكان للرجل رُوْحان- أدركَه وهو يكتب لنفسه، فأبى إلا أن ينفع هؤلاء الذين ينتظرون أن يَعُمَّهم الأستاذ بسابغ علمه واطِّلاعه، فمضى لا يخيِّبُ لهم ظنًّا؟

ولربما رام أن يسرد سردًا لا كأيِّ سرد، مهما كانت النتائج، فليس يعنيه أن «يسهر القوم جرَّاها ويختصمُ»!

أسئلة أخرى حائرة، لن تَضلَّ، أو يضلَّ واحدُها أن يجيبَ عن الأسئلة الأولى.

٣- «أنا» وآثارها:

ومادام الحديث قد جرَّنا إلى سبيل (أنا)، فلن نغادرَه دون أن نسلك فيه قليلاً.

إنَّ رائحة العُجب بالنفس، والثناء عليها في كل مناسبة، لتفوح من ثنايا السيرة. والتصريحَ بهذا المعنى، أو الإلماعَ به؛ لوسمٌ مميَّزٌ في جبينها.

فهو يرى أن السرَّ في رواج كتابه «نيتشه» هو: «الحرارة والجمال في أسلوبه، والحماسة في عرْض آراء نيتشه» [١/١٥١].

وعن خطبةٍ له في لُبنان يقول: «ونشرتْ الصحف خطبتي هذه كاملة، بوصفها قطعة أدبية رائعة، مشبوبة بالمشاعر الجميلة نحو لبنان، وصار كل من يلقاني في الطريق –ممن أعرف ولا أعرف– يهنئني عليها» [١/١٧٧].

وعن الدكتوراه: «ونشرتْ جريدة الأهرام في اليوم التالي... نبأ المناقشة، وأوردت بالنص بعض ما قاله د. طه حسين أثناء المناقشة، وهو: «لأول مرة نشاهد فيلسوفًا مصريًا»، وكان الدكتور طه قد أفاض في تقريظي... كما أن پاول كراوس قال: إن الرسالة تجتاز القرون...» [١/١٧٩]. وهي طريقة ذكية غير صريحة في مدح الذات.

وهو يذكر تحقيقه «منطق أرسطو»، ويذكر أن العديد من المستشرقين الأوربيين «تهيَّب» دون تحقيقه. وأنه «أمام هذا العمل العملاق الجبار جُنَّ جنونُ العاجزين الحاقدين من هؤلاء المستشرقين الأوفياء، وتلاميذهم الأوفياء، فحاولوا نقده، فكان نقدهم المزعوم هذا:

كناطحٍ صخرةً يومًا ليوهنَها ... فلم يَضِرْها، وأوهى قرنَه الوعِلُ

وهيهات هيهات أن يؤثِّر طنينُ هؤلاء الذباب في جبل شامخ!» [١/١٨١].

وكان بعضهُم يُرعِي سمعَه بانتباه بالغ لمحاضرته، فظن الدكتور أنه «ربما كان لفصاحة عبارتي العربية دورٌ بارز في هذا الاهتمام الشديد» [٢/٢٦٢].

هذا فضلاً عن ضمير الجمع الذي يستخدمه الدكتور: ذهبنا، سمعنا، حضرنا... خصوصًا في الجزء الثاني من السيرة، بعد أن صارت له مكانة علمية مرموقة.

على أن من النقاد من اعتذر لكُتَّاب السيرة، «فهم غالبًا ما يسلِّطون على أنفسهم أحسن ضوء ممكن، طامسين بعض الحقائق... وتستحق هذه العيوب الدراسة، ولكنها ليست مقومات الشكل المُعَرِّفة، ونحن جميعًا نبدي التحيز نفسَه لأنفسنا في الكتابة والمحادثة. إن الجدير باهتمام أكبر هو عناصر السيرة الذاتية التي تنبعث من حالات خلقها...»(١).

ويؤكد آخر الفكرة ذاتها فيقول: «لا نستطيع الكتابة عن الذات دون حدٍّ أدنى من التقدير الذي نوليه لأنفسنا، والذي يجعل منا شخصية / مركزًا للعالم، ولو كان هذا العالم خلية عائلية»(٢).

ولكن، هل أخطأ الدكتور عبد الرحمن المنهجَ حين جاوز إلى عيب الآخرين وتقريعهم من أجل أن يبقى هو نقيًّا في أذهاننا نحن قُرَّاءَ سيرته؟ أم أنه قرَّعهم وعابهم، لأمور كانت فيهم بحقٍّ وعَميت علينا؟

لسنا ندري. ولكننا ندري مع ذلك أن أناسًا هم رموزٌ في ثقافتنا قَدْ مَسَّهم ما مسَّهم. ولن يثنيَنا هذا عن تنزيل كلٍّ منزلَه اللائقَ به، وعلينا من بعدُ أن نقرأ هذه الأحداث التي رواها الدكتور بحذر بالغ، لا ننكر إلا ما نتيقن نُكرانه، ولا نقبل إلا ما اطمأننا لصحته...

وإذا رغبتَ إلى أن تعرف خَطَرَ مَنْ نالهم قلمُ عبد الرحمن بدوي فهذه قائمة مختصرة لبعضهم:

علي باشا مبارك [١/٧]، العقاد [١/٢٨، ١٣٣]، سعد زغلول [١/٤١]، النحاس باشا [١/٤١]، محمد عبده [١/٥١]، أحمد أمين [١/١٥٣]، نلّينو [١/١١٠]، طه حسين [١/١٢٣]، النقراشي باشا [١/١٢٨]، علي إبراهيم باشا [١/١٣٥]، عبد الرحمن عزام [١/١٥٩]، رياض الصلح [١/١٧٠]، سارتر [١/١٨٣]، توفيق الحكيم [١/٢٠١]، زكي نجيب محمود [١/٢٢٧]، الشرقاوي [١/٣٧١]، بابا الڤاتيكان

(١) نظريات السرد الحديثة، لوالاس مارتن ص٩٦ (ترجمة حياة جاسم محمد، المجلس الأعلى للثقافة ١٩٩٨م).
(٢) الكتابة والوجود: السيرة الذاتية في المغرب ، لعبد القادر الشاوي ص ١٣ (دار أفريقيا الشرق، المغرب ٢٠٠٠م) نقلاً عن: كوسدورف.

[٢٠٢/٢].

بل لقد نال أشياء معنويةً وأخرى حسيةً بالنقد القاسي اللاذع:

فهو ينقد دائرة المعارف [٥٠/١]، ومعهد الآداب الشرقية بلبنان [١٦٤/١]، وناشري لبنان [١٥١/١]، والبحر بحر الشمال [٣٢٢/١]، وجامعة كمبردج [٣٦٤/١]، وبريطانيا [٢١٢/٢، ٢٤٤]، وعلماء النفس [١٢/٢]، وأساتذة الحقوق [٢٢٦/٢، ٢٤٤، ٢٤٥]...

وليس كل هذا الجرح ذاتيًا بحتًا، لا بل إن فيه ما مثيره الوطنية، وفيه ما دافعه قومي، أو ما كان غيرةً على الإسلام، فهو يسمو في مواطن كثيرة تستحق الإعجاب والتحية.

وهو جرحٌ في ثنايا علله وأسبابه، والقارئُ الحصيف سيميز ما كان وجيهًا، مما اعتراه شيء من تحامل.

وهذه الحصيلة المثيرة –لا جرمَ– تهدينا إلى الحكم بجرأة كاتبها، وقوته، واعتزازه بنفسه. وقد صرح بذلك مرارًا، متخذًا إياه ديدن حياة. وتهدينا في تصوري إلى المدى الذي عاناه بدوي –رحمه الله– في حياته الاجتماعية، أيَّدناه أو خالفناه، لكنَّ هذه السيرة ستبقى فردًا بين كل السير العربية الأخرى في صراحتها، ومحاولة تعريتها المبالغة لما كان مستورًا، أو مُحرَّمًا، أو مستحًى منه.

وحتى يلحق الكلامُ آخرُه بأوله لا محيصَ من ذكر الجانب الآخر في هذه القضية، وهو: التواضعُ، والإنصاف، والاعتراف بالفضل، حتى لبعض من عابَهم ممن ذُكر آنفًا: لئلاَّ يُظن أن الرجل لم يَعْدُ أن يكون آلة ازدراء وتقليل لمن وما حوله.

فهو يعترف بالفضل للمنفلوطي على أسلوبه [٢٨/١]، ويأنس لكتابات طه حسين وهيكل [٢٨/١]، ويُثني على أستاذه حسن جوهر الذي درَّسه في الثانوية [٣٣/١]، ويسجِّل إعجابه بجُبران [٣٥/١]، ويدافع عن طه حسين في مشهد مؤثِّر [٤٢/١–٤٣]، ويمتدح أستاذه طه إبراهيم [٥٨/١]، ويذكر –للتاريخ– موقفًا لزكي نجيب محمود [٢٢٨/١]، ويدبّج الثناء لأسلوب هيكل [٣٢٧/١]، ويكتب أثيرة لعبد الناصر، على أنه

شديد البغض له [٣٧٧/١]، ويثني ممتنًّا على زملائه في قسم الفلسفة [٣٨١/١]، ويشكر رنياتو تراييني المسؤول في «مؤسسة كيتاني» [١٩٩/٢]، ويعترف بفضلٍ للسادات [٢٤٩/١]...

وإذن فلم يكن صاحب السيرة جاحدًا، ولم تكن الدنيا –كلُّ الدنيا – بشعةً في عينيه كما يحاول قوم أن يقنعونا، وهو ما يظهر من هذه الأمثلة.

ولكن الذهن العربي في القرن العشرين لم يتعوَّد أن يُنْصِتَ إلى مقدارٍ هائلٍ من النقد كالذي أُفرغ في السيرة. ولعل تهويل هذا المقدار يعود إلى المبالغة في تلميع شخوص بعينهم، ثم يتقادم الزمن على ذلك، وتتعاظم معه قيمة أولئك حتى تصل إلى منزلة قريب من القداسة. وقل لي بربك، كيف سيكون وقعُ نقدٍ شديد، أو سخريةٍ بمن يضعهم الناس أمثلة يحتذون حذوها. العيب لا يلحق الناسَ حتى بعض المثقفين منهم؛ إنه مأزِق حضاري.

٤– حُبُّهُ:

هذا التجريد الذي نهجه بدوي في سرده ظهرتْ آثارُه في علاقته بالمرأة، ورؤيتهِ لقضيتها. والمرأة تشغل ولا بُدَّ مساحة ما على خريطة كل رجل. بيد أن الذي يلقانا عند بدوي شيءٌ عجيب؛ لأن المرأة غابت عن حياته، بل قل –بالأحرى– عن (سيرته) إلا في بعض المغامرات الجريئة التي لا يرى بأسًا من سردها:

فهو يتحسر على حُبٍّ قصيرٍ كان قبلَه –قبل التحسُّر– «عناقٌ حارٌّ، وتقبيل طويل، ومزيد من الوعود، لكني لم أرها بعد ذلك أبدا» [٨١/١].

وفي إحدى الحانات –ولا يشرب الكحوليات– كان يكتفي بأكل الدجاج المشوي، وأن يكون جلوسه بين فتاتين جميلتين إن أمكن [٨٥/١].

ويقول: «ولحرصي على تعهُّد لغتي الألمانية... فكنت أقضي معظم أوقات فراغي مع طالبات ألمانيات أو نمساويات، وكنَّ جميعًا بين الثامنة عشرة، والخامسة والعشرين» [٩٩/١].

ثم يذكر قصة تذكِّرنا بمشهد في قصة من قصص اليافعين مع إحدى الفتيات التي

يتسلى بها في سفره ورحلاته [١/٩٩، وما بعدها].

ومرَّة تعرَّف إلى هولنديَّةً في متحف اللوڤر، وبعد جولته معها في حديقة اللوكسمبو، أخذ يطارحها الغرام بالقرب من النافورة وأمام روضة الأزهار المفوفة الألوان البديعة التنسيق... [١/٣٢١]. ويلخص متعته بلقاء هذه الفتاة: «وكان اللقاء معها متعةً للحس والذوق الفني معًا» [١/٣٢٢].

جزءٌ ضئيلٌ هو نصيب المرأة في فيافي هذا الإنسان المترامي على ما فيه من اعترافٍ وجُرأةٍ غريبةٍ في الجوِّ العربيّ. جزءٌ لا يجاوز الشهوة والانتفاع، وكلتاهما تنقضيان في برهة، ويبقى الرجلُ. وفي أوجِ حالات الغرام، كان ينشغل عنهن بالأزهار[1]!

الرجل الذي لم يتزوج، وكأنه اكتفى بهذه الرشفات العاجلة من خمر الحياة، ولم يذق قطُّ الماء العذب الذي يروي الظمَأيْن: ظمإ الروح، وظمإ الجسد. وها هو يتحسر على ذلك، ويئنُّ أنينًا موجعًا في مقطعٍ معبِّرٍ يقْطِرُ حزنًا، أسمعتَ بكاءَ الشيخ على عُمُرِه؟! :

«وكم قضيتُ ساعاتٍ في هذا الموضع مع فتياتٍ من السويد، أو النرويج، أو النمسا، أو هولندة؛ نتناول الأحاديث العذبة الرقيقة! لقد كنت آنذاك شابًّا أدور حوالي الثلاثين من العمر، وللشباب سِحْرُهُ الذي لا يعوِّض عنه شيء.

فوا حسرتاه اليومَ على نفسي وأنا أرتاد هذا الموضع دون صاحبة ولا رفيقة!، وإني لأناجيهنَّ في الذكرى وأقول:

أين أنتنَّ الآنَ، أيَّتُها الصواحبُ!

وماذا حلَّ بكنّ، وماذا فعل المصيرُ بكنّ!

---

(١) يذهب أندريه موروا إلى أن هناك نوعًا من الرقابة يفرضه كاتب السيرة على نفسه داعيه الحياء من الحديث عن الحياة الجنسية، فقليل من الناس هم من لديه الشجاعة في الحديث عن ذلك. وهو يرى أن من المستحسن في مثل هذه الأحوال الإيحاء لا الوصف، لا كما فعل روسُّو في اعترافاته الجريئة التي لم تخلُ من الاستعراض (انظر: فن التراجم والسِّيَر الذاتية، لأندريه موروا ص ١٠٣-١٠٤، ترجمة وتقديم وتعليق الدكتور أحمد درويش، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة ١٩٩٩م).

كان الوصال إمَّا قصيرًا، وإمَّا طويلاً؛ وفي كلا الحالين كان الفِراق نهائيًا.

وكان الوصال كهذه الأزهار الماثلة أمام عينيَّ:

بُرْعُمٌ، ثم يتفتح مَلاوةً من الزمان، ثم تذبل الزهرة، وتموتُ بلا بعْثٍ ولا رجعة.

كانت العَلاقة على دَخل: استمتاعٌ بالشهوة من جانبي، وطمعٌ في الزواج من جانبهنّ. فكان لابد للعلاقة أن تنقطع، مهما طالت المناورةُ بيني وبينهنّ» [١/١٨٧].

أين هذا النشيجُ البائس، من تلك الأناشيد التي غَمَرنا بها في (الحُور والنُّور) أيامَ البهجة والطرب، أيامَ الشباب:

«من الجبل إلى البُحيرة، ومن البحيرة إلى الجبل، همسٌ أرقُّ من الغزلْ، يسري على مَهَلْ، وسحابٌ يغدو بين الأعالي على عجلْ.

والنفس حائرةٌ بين اليأس والأملْ.

فهذان عاشقان يقتلان الشوق بالقُبَلْ، وهناك فلاَّحٌ، وملاَّحٌ في زحمة العملْ...

وعلى طول الشطآن غانياتٌ يخْطُرن في دَلٍّ وغزلْ، وفي خُدودهن إغراءٌ تعلوه حُمرة الخَجلْ.

وها أنذا وحدي، أهيم بين مفاتن الصور»[١].

«وحدي» منذ الشباب إذن، إلى الشيخوخة. «وحدى» في كل شيءٍ، «وحدي».

ولا تحسبن أنَّ صاحب السيرة لم تُشْقِه غيرُ الصور، ولم يُولَع إلا بالجسد فقط. لقد أحبَّ يومًا ما حبًّا صادقًا، غير أنه –على صدقه– حبٌّ عَجِل، ولكنه لم يذكره لنا في «السيرة». أترفُّعًا أن يقال: لم يوفق الدكتور؟ أم أنفةً أن يخضع لأنثى، وهو الذي طالما رفع صوته بأنه يعرف خباياهنّ.

هذا الحب العذري يشرحُه لنا في قصيدة عنوانها: «لَمَّا سافَرَتْ»[١] من ديوانه البكر:

---

(١) الحور والنور ص٢١٦ (مكتبة النهضة المصرية، القاهرة ١٩٥١م).

(مرآة نفسي)، وكان في سنينه العشرين أو دون ذلك:

« ولقد سافرتْ عني بعد حين قليل إلى الثغر، فاستشعرتُ ألم الفراق معها لأول مرة عنيفًا قاسيًا، وتبين لي منه إلى أيِّ مدى أُولعت بها غرامًـــا، وكنـــت فـــي غرامـــي مخلصًـــا، إخلاصًـــا هـــا أنـــذا أقـــدم – نادمًـــا – عنـــه أبشـــع الكفـــارة، ويا ويلتاه! ...

ســـافرتْ تحمـــلُ للبحـــر تباريـــ ـــحَ هوانَـــا والمُنـــى، تحـــتَ المظَلَّـــةْ
ســـألَتْني قبـــلَ أنْ ترحـــلَ هَـــلْ تقْـــ ـــوى علـــى البُعْـــدِ وَإنْ كـــان أقلَّـــهْ
فتحيَّـــرتُ ومَـــا كـــان جَـــوابي غيـــرَ تَحْنـــانِ دُمُـــوعٍ مُسْـــتَهِلَّهْ
أنشـــأتْ تنظـــرُ فـــي البلّـــور مِـــنْ دَمْـــ ـــعي كعَـــرَّافٍ تُمنِّيـــهِ الأَدِلَّـــهْ
رَفَعـــتْ حاجبَهـــا المرســـومَ بالغـــد رِ مطْبوعًـــا عَلـــى أَسْـــنَى الأَهلَّـــهْ
وَغَـــدتْ سَـــاهِمةً تنْســـابُ بـــيْنَ الْـــ ـــحُلْم والأشـــواقِ فـــي أَخْفَـــى مَضِـــلَّهْ
جَاذَبَـــتْ عَبَرْتَهـــا الإخْفَـــاءَ، لَكِـــنْ غَلَـــبَ الوْجـــدُ عَلَـــى كُـــلِّ تَعِلَّـــهْ

=

(١) مرآة نفسي: ديوان شعر، لعبد الرحمن بدوي ص ٣٢، ١٩٤٦م.

قَطْـــرةٌ بـــالروحِ تُفْـــدَى، إنَّهـــا   صَـــفوةُ الصَّـــبِّ إذَا العِشْـــقُ أَذَلَّـــهْ
هَـــذِهِ الأَدْمـــعُ مَـــا أَعلَـــى لُغَاهَـــا   إنَّهـــا للحُـــبِّ وَالعُشَّـــاقِ مِلَّـــهْ

أيُّهـــا الرَّاحِـــلُ لِلْمَرْفَـــأِ سَـــبِّحْ   بـــالهَوَى فِـــي الـــذِّكْرِ مِـــنْ كُـــلِّ الشُّـــجُونْ
اذْكُـــرِي فِـــي المَـــوْجِ قَلْبِـــي خَافِقًـــا بَيْـــ   ـــنَ ضُـــلوعٍ، يتلَـــوَّى، كَالسَـــجِينْ
يَـــنْطَحُ الصَّـــخْرةَ مِـــنْ غَيـــرِ غَنَـــاءٍ   إنَّمـــا أَنْـــتَ لَنَـــا الشَّـــطْءُ الأمـــينْ
اذْكُرِينِـــي إنْ سَـــرَى النَّسْـــم عَلَـــى «الكـــر   نـــيْشِ» مَشْـــبُوبَ الجَـــوَى وَقْـــتَ الأَصِـــيلْ

بيْنَمـــا أَنْـــتِ تَسِـــيرينَ عَلَـــى هَمْـــ   ـــسِ الهَـــوَى النَّـــائِي، وَيَـــا نِغْـــم الـــدَّلِيلْ
...سَـــاهِمًا وَجْهُـــكِ يَسْـــأَلْنَكِ: مَـــاذَا   حَـــلَّ بـــالنَّفْسِ، وَمَـــا هَـــذَا الـــذُّهُولْ
فـــأَجِيْبِي –إنْ تُجِيْبِـــي : لَـــيْس للعَـــا   * شِـــقِ فِـــي الـــدُّنْيا سِـــوَى وجْـــهِ الخَلِيـــلْ
كُـــلُّ مَـــا فـــي الكَـــوْنِ مـــن بحـــرٍ إذَا وُو   زنَ بـــالمحبُوبِ يعلُـــو وَيَشِـــيلْ
كيـــفَ تسْـــلين عَـــنِ العَاشَـــقِ، لاَ   كَيْـــفَ! والعشْـــقُ لنـــا الأَصْـــلُ الأَصِـــيلْ
منـــهُ نَغْـــذُو، منْـــهُ نَنمْـــو، فيـــهِ نَسْـــعى   مِنْـــهُ نَحْيـــا، فِيـــهِ نَفْنَـــى وَنَـــزُولْ!

هل علمتَ الآنَ، أيَّ منزلٍ كان ينزله الحبُّ من نفسه؟ كان الحبُّ كلَّ شيء، ليس له فحسب، بل لجميع الخلق، في نظريَّةٍ كان يؤمن بها، كان يرى أنه الأصل الأصيل، منه نغذو، منه ننمو، فيه نسعى، منه نحيا، فيه نفنى ونزول! وهكذا نعيش بالحب، وله، وفيه نموت.

ولكن الأستاذ –على ما بلغنا– لم يحبَّ في حياته قطّ، ولسنا نسمي تلك المغامرات المتعجّلة حبًّا، باعترافه هو. ولكنَّ السؤال الطاغي: ولماذا لم يحب؟

هل افتقد ذلك الشُّعور الذي كان يتمنّاه، فعاش حياة الحرمان؟ أم أحبَّ ولم نكنْ ندري؟

أم شغله العلم؟ وما شُغْلُ العلم عن شُغْلٍ سواه بالمستهجن، واقرأ –إذا شئت– كتاب:

«العلماء العزاب الذين آثروا العلم على الزواج»[1]، ففيه خبرٌ جَمٌّ من أخبار هؤلاء[1].

لست أعلم، لكنني أعلم أن للعلم شهوةً، فَوَّارةً، صخَّابةً، تدفع بصاحبها إلى ما يشبه الجنون، الجنون بالعلم. وهي تفارق شهوة الجسد، وغيرها من الشهوات، بمزيَّة الدوام؛ لذا تأخذ بتلابيب صاحبها، ولا تفارقه إلا بُرهة، لا تلبث أن تعود فتأخذ بها أخرى. ولقد أخذ العلم بجِماع عبد الرحمن بدوي. وليس ما نفثه في القصيدة السالفة إلا ريشةً ضاعت في مهبِّ ريح العلم. ريحُ العلم التي لمَّا تكدْ تخفُت أبدًا مدى عُمُره.

وفي هذا تفسيرٌ للعناية التي أَوْلاها بدوي لكتبه في «السيرة»، يذكرها في تضاعيف حياته، كما يذكر المرءُ أمَّه وأباه، وزوجَه وابنَه؛ يؤرِّخ لها، ويحكي ما جرى جَرَّاءَها، كتبُهُ بُنيَّاتُه اللاتي كان يحنو عليهنّ، ويدفَع عنهنّ، ويغضبُ لهنّ:

«وكان أولَ إنتاج لي هو كتاب «نيتشة» الذي ظهر في أكتوبر سنة **١٩٣٩** عند الناشر: مكتبة النهضة المصرية (١٥ شارع المدابغ آنذاك) »**[١٥٠/١]**.

«وبعد ظهور كتابي «نيتشة» بستة أشهر، صدر كتابي الثاني وهو: «التراث اليوناني في الحضارة الإسلامية» ويحتوي على جملة من الدراسات المتعلقة بهذا الموضوع، والتي كتبها من كبار المستشرقين، وهم... » **[١٥٢/١]**.

«... لكن كانت هناك محاضرات عامة، ألقيت منها ثلاثًا في العام الأول بعنوانات: «شهيدة العشق الإلهي: رابعة العدوية»، و «شطحات الصوفية»، و«هل يمكن قيام أخلاق وجودية» – والمحاضرتان الأوليان كانتا الأساس للكتابين أصدرتهما بنفس العنوان، أما المحاضرة الثالثة فطبعت على حدة في مجلة كلية الآداب عين شمس وعنوانها: «حوليات كلية الآداب» ثم حررتها في رسالة صغيرة أحدثت آنذاك ضجة لا مبرر لها في الصحف، وفي الجهات الرسمية» **[١٦٣/١]**.

«ولما كنت قد وصفتُ مشاعري أمام المواقع الجميلة في سويسرة في كتابي (الحور

---

(١) العلماء العزاب الذين آثروا العلم على الزواج، لعبد الفتاح أبو غدَّة، مكتب المطبوعات الإسلامية، حلب، ط١٤٠٣/٢هـ.

والنور) فإني أجتزئ بالإحالة إليه» [٢٠٨/١].

«ومن هنا اقتصر إنتاجي العلمي، طوال السنوات الثلاث التي أمضيتها في برْن على الترجمة وتحقيق النصوص:

١. ترجمة «دون كيخوته» لثربانتس، وكنت قد أحضرت معي شرح رودجث مارين عليها وقد طبعته في القاهرة في جزأين سنة ١٩٦٤، وسنة ١٩٦٦.

٢. ترجمة بحث يوليوس ڤلهوزن... » [٢٧٣/١].

لقد أراحنا الأستاذ كثيرًا –وكان ينبغي أن يريح قومًا آخرين همَّهم أمرُ عُزوبته– أراحنا حين ردَّ سؤالَ الضابط الليبيِّ الذي كان يستجوبه:

«س ٢ : لماذا لم تتزوج (وأشفع ذلك بقوله: إن في وسعي أن أمتنع عن الجواب، لأنه أمر شخصي)؟

ج: لأني آثرت التفرغ للعلم وحده، ولم أرد أن يشغلني عن العلم والبحث شيء، وأنت تعلم مشاغل الأسرة والأولاد» [٢٤٩/٢].

٥- غاية السيرة:

لماذا كتب الدكتور عبد الرحمن بدوي سيرته؟

إن تاريخ كتابة السيرة الذاتية قد يساعد على فهم الغايات التي تُكتب السيرة من أجلها[1].

كتب بدوي سيرته بين عامي ١٩٨٥ و١٩٨٨، وكان يذكر حينًا بعد حين اليوم الذي يكتب فيه، وهاك تلك الأيام والتواريخ:

أ – ١٩٨٥ [١٦٩/١].

---

(١) انظر: فن السيرة، للدكتور إحسان عباس ص٩٤ (دار صادر، بيروت، ط١/١٩٩٦م).

ب – ١٩٨٦ [٣٢٨/١].

ج – ٢٠ ديسمبر ١٩٨٧ [١٩٢/٢].

د – ١٩٨٧/١٢/٣٠ [٢١٣/٢].

هـ – ١٩ يناير ١٩٨٨ [٢٥٤/٢].

و – ٩ فبراير ١٩٨٨ [٣٢٣/٢].

ز – ٥ مارس ١٩٨٨ [٣٧٨/٢].

سبعةُ عقود من الأيام والليالي عركها بدوي وعركته، ثم استراحا معًا استراحة محارب، يجترَّان الذكريات.

إن هؤلاء الذين يروون سيرَهم للناس، ليشعرون من طرْفٍ خفيٍّ أو ظاهر، أنَّ لهم قيمةً ما في هذه الحياة، وأن أثرهم تعمَّق في أرض مَشَوْا عليها. ولا ريب أن بدوي كان من أولئك الذين أحسوا بقدر أنفسهم، فروى سيرته.

إن ما مضى من صفحات قاطعٌ بذلك، وإنَّ بَذْلَ رجل حريص على أيامه أن تضيع دون كتاب أو بحث أو ترجمة؛ بذْلَه ثلاث سنوات من حياته دليلٌ ساطعٌ على هذا الإحساس.

ولماذا يكتبها الآن، وهو الشيخ الهرم؟

أفَعَلَ ذلك لأن العظماء فعلوه؟ أم فعله مذكِّرًا قومَه نفسَه بعد ما نسَيهُ قومُه أو تناسَوه؟ أم فعله كي يثير كما كان يثيرُ غبارًا من حوله، وهو الذي سكَن غبارُه منذ حين؟ أهو الحنين إلى مشاكسات الصِّبا؟

لعله خلد إلى حبه القديم، وحبِّه الدائم: إلى الأوراق، نِعْمَ الرفيق في الرحلة، يحكي لها، ويذْكُرُ لها، يُفاكهها، ويُسِرُّ إليها، ويقْلقُ أن يفارقها، فيكتب كلامًا: هو إسْهَابٌ، هو استطرادٌ، هو حشوٌ، هو تعلُّق المحبِّ بشتَّى العبارات.

٦- الذَّوق والثقافة:

وفي السيرة ذَوْقٌ، وفيها رهافةٌ ورِقَّة، وفيها ثقافةٌ عالية. وقد سبق أن مثلنا للمِزاج الفني عند بدوي. بقي أن نشير إلى شيءٍ من ذكائه النقدي في تشريح الأمور، وهو الذي عُني بدواخل الأشياء؛ ألم يخض غمار الفلسفة؟

لقد نفَخَتْ دقةُ الملاحظة نفَسًا عميقًا في روح «السيرة»:

«وكان التعامل مع الفلاحين مزيجًا من الألفة... والاحتياط... إن الفلاح المصري – وربما كل فلاح في العالم – مِزاجٌ من طِيب النفس والخبث... من البساطة والتواء الحيلة...» [١/٢٣].

«وما أكثر الأوهام التي تدور في أذهان الطلبة المصريين الذين يتلقون العلم خارج مصر» [١/٩٢].

«والمصري بطبعه لا يتمعن في أي شيء يقرؤه أو يسمعه، بل يصدق أي شيء مادام الأمر لا يتعلق بمصلحته الشخصية...» [١/١٨٤].

«وهنا لابد أن أشير إلى ظاهرة أليمة عند الموظفين المصريين، وهي الولوع بالمزيد من الظلم» [١/٣٧٩].

«إنه شعبٌ مولعٌ بالسير في الجنازات منذ فجر التاريخ ولا يزال حتى اليوم يحتفل كثيرًا للاشتراك في الجنازات على نحو لا أعرف له مثيلاً في أي بلد...» [٢/٢٣٨].

«إن هذا الطالب يظن بكذبه أنه يستدر عطفك، وأنت مسيحي، ليحصل على الدكتوراه دون عناء ولا اجتهاد. وهذا الأسلوب معروف جدًّا ومألوف لدى الطلاب الأقباط الذين يدرسون في جامعات أوروبية أو أمريكية» [١/٢٨٠].

واسمع له وهو بهيجٌ بالأصوات، أو مشمئزٌّ قلبُه منها، في رقَّة ولطف طبعٍ أخفاه طويلاً أسلوبُه اللاذع:

«... بفضل المحاضرة التي ألقاها الدكتور طه حسين... وأذكر أنه حين ألقى في

وسط المحاضرة بيتًا من الشعر بصوته الساحر اهتزت أرجاء القاعة بالتصفيق» [١/١٧١].

«كذلك أتيح لي أن أحضر ثلاث محاضرات للفيلسوف الوجودي الألماني كارل يسبرز... وكان صوته خفيفًا مملاً يبعث على النوم» [١/٢٦٩].

ولو أردتُ إلى استقصاء هذه الحاسة المقارِنةَ لديه، لطال بنا المقام ههنا.

ولكن شيئًا لا يمكن تجاوزه –ولو بإشارة– لمن يدرس حياة بدوي، ذلك هو: مهرجان اللغات، الذي كان يرفُل فيه. وقد أدت به اللغات إلى ثقافات، وحضارات مختلفة، أحدثت تميُّزًا في تكوينه، وأودت به إلى الانبهار أحيانًا بالفكْر والحياة في أوربا، وحسبنا هذا المثال الذي يختصر هذه القضية لديه:

«والمقبرة جديدةٌ، فسيحة جدًّا، غرست فيها أشجار الصنوبر والشربين والزيزفون، وعلا ثراها العشب الأخضر، فرحنا نقارن بين هذه المقبرة الوافرة الخضرة الناضرة بالعشب والأشجار، وبين مقابرنا الكئيبة في مصر!» [١/٩١].

سوى أن انبهاره هذا ما كان بغير وعي، كلا، بل كان بوعي كامل، من أجل ذلك نجده في غير ما موضع ينتقد كثيرًا من ثوابت الحضارة الغربية، ويجادل نفرًا مرموقًا من رجالاتهم.

ويُهمنا في هذه اللحظة خاطرٌ: هل تأثر بدوي في كتابة سيرته بأحدٍ من الكتاب الأوربيين؟

ثَمَّ موقف يُذكِّرنا بمشهد العقاب الذي تعرَّض له روسُّو في كتابه (الاعترافات)[١]، وكانت النتيجة –تقريبًا– واحدة، يقول بدوي بعد رواية ما جرى له مع المناظر:

«وكان لهذا الحادث أثرٌ عميقٌ في نفسي. وصرت أتذكَّرُه بعد ذلك كلما حلَّ بي ظلم دون أي ذنبٍ أرتكبه... أقنعني بسفالة الإنسان، وحماقة تصرفاته، وولعه الشديد بالقسوة على الأبرياء والخوف من الأقوياء. وأيدت الأحداث بعد ذلك... صدق هذا التصور» [١/٤٤].

وكأن موقفيهما كانا في مطلع العمر. بيد أنه لا يمكن الجزم بذلك التأثر.

---

(١) اعترافات جان جاك روسو ٢/٥ (المؤسسة العربية الحديثة، القاهرة، ط٢، مطبوعات كتابي).

على أن بدوي -لا نكرانَ- كان يقرأ السيرَ الذاتية، استنباطًا من دأبه على التزوُّد من الأدب، وكان عالمًا بكتب الأفذاذ، يقول عن دي پرون:

«وله سيرة ذاتيةٌ بعنوان «البلد الأصلي» سنة ١٩٣٥، يروي فيها حياته في شبابه في جاوة، ثم حياته في باريس؛ حيث يذكر أحاديثه الحارة مع أصدقائه، ويكشف عن جانب من الحياة الفنية والأدبية في باريس في الثلاثينات من هذا القرن» [٣١٤/١].

وهذه بالفعل طريقة الأستاذ في السيرة. فهل كان لپرَوِن أثرٌ في منحى كتابة بدوي لسيرة حياته؟ لم لا.

ثانيًا: هَيْكلُ السِّيرَة (دراسة في الفن):

١- ألفاظ اللُّغة:

تتَّسم اللغة في «سيرة حياتي» بالبلاغة والبيان الناصع، دونما تلعثم، أو تلجلج، فهي منسابة مثل انسياب النهر الرائق، لا التواءات، لا عقبات، ولا سدود. لغة قويَّةٌ في غير ما جفوة، طيِّعةٌ للرجل، سهلة منقادة.

مكونات هذه اللغة، ألفاظٌ فصيحةٌ، لا صعوبة في نطقها، ولا تفيهُق لدى صاحبها، على أن بدوي كان حريصًا على أن لا يُسفَّ فينزلَ إلى ألفاظ العامة وتعابيرهم؛ لذلك نراه ما إن يأتيَ بلفظة عامِّيَّةٍ أو تعبير شعبيٍّ -وما أقلَّهما- وضع ذلك بين هلالين مزدوجين:

«كنت أكتب على « التختة » خطبًا باللاتينية» [١١٦/١].

«وأحدثت هذه « العلقة » أثرها الحاسم» [١٣٣/١].

« تطبيقًا للمثل العامي الشائع في مصر، والذي يقول: «القط ما يحبّش إلّا خنّاقه» (القط لا يحب إلا مَنْ يعذّبه ويواصل خنقه) » [٦٢/٢].

وهكذا يشرح لنا معنى المثل العامي، كأنه يترجم – على عادته – من لغة إلى لغة.

ثم إن الذي ملأ السيرة بالضجيج، وطَنَّ الآذان جعجعةً، هي ألفاظ التقريع التي تُعد

سمة مميزة للغة بدوي، فهي تمثل معجمًا فريدًا في بابه، وسأذكر قدرًا صالحًا من هذه الألفاظ لتَبين لنا النتيجةُ التي تركتها براعة الأستاذ وثقافتُه في استدراج اللغة، وإليكم هذه القائمة:

«وهذه الضيعة الواسعة لا نعرف متى اشتراها أو نهبها» [١/٨].

«لقد حل محل مديح النبي والأعيان مديح الطاغوت والأشرار» [٢/٢١].

«وكتب عباس محمود العقاد كتيبًا صغيرًا تافهًا عن جيته» [١/٣٦].

«لأني وجدت كتاب بريية تافهًا. سيء التأليف، فقير المادة» [١/٦٥].

«وشعر بمرارة شديدة لتصرف هذا العميد الحقود أحمد أمين» [١/٦٥].

«كان بذيء اللسان أحمق الطبع» [١/٦٨].

«النقراشي المعروف بشراسته وحمقه وضيق فكره» [١/١٢٨].

«كان جبانًا، هيَّابًا... كان انتهازيًّا... وكان مهرجًا» [١/١٣٥].

«كان يتبجَّح» [١/١٣٧].

«كان الجو في كلية الآداب... مسمومًا خانقًا، تكثر فيه الحزازات، والوشايات، والمهاترات، والمؤامرات» [١/١٥٧].

«كشف عن سخائمه» [١/١٥٨].

«وهو مسخٌ مزيف» [١/١٦٤].

«فؤاد أفرام البستاني – هذا الأفعوان، العرم، الخبيث» [١/١٧١].

«العاجزين الحاقدين... الذباب» [١/١٨١].

«فما بالك إذا انضاف إلى هذا الجهل المركب العنيد، الحقد الأزرق المدمر» [١/١٨٤].

«وأنا أعجب لهذا الرجل... كيف تصدر عنه هذه التصرفات الصبيانية» [١/٢٠٢].

«تقف بين زوجها الأبله المعتوه وبين السفير البريطاني» [١/٢١٤].

«النحاس – الرمز المتجسد للخيانة العظمى» [١/٢٢٠].

«تلخيص بسيط ساذج» [١/٢٢٧].

«كتاب تافه جدًّا، سطحي جدًّا» [١/٢٢٧].

«تصرفات حمقاء طائشة» [١/٢٣٨].

«الدوي الأجوف العقيم» [١/٢٣٨].

«صوته الذي كان يموء به مواء القط المخنوق» [١/٢٤٠].

«متبلد الإحساس» [١/٢٤٢].

«الجهل، والتفاهة، والتملق هي المؤهلات الأساسية عندهم جميعًا» [١/٢٤٩].

«أساليب خسيسة» [١/٢٧٩].

«وعبروا عن هذه المزاعم بالرطانة المألوفة» [٢/١٢].

«الفقاقيع» [٢/٢٥].

«يقول بكل صفاقة واستخفاف» [٢/٦٨].

«واليساريون الذين لا يزالون حتى اليوْم يهبُّون – أو يعوون وينبحون –» [٢/٩٤].

«وكان غليظًا جبانًا غبيًّا معًا» [٢/١٨٩].

«الوصوليون المتطلعون» [٢/٢٤٥].

«ألاعيب ناشئة جهلة عابثين» [٢/٢٥٧].

«ألقى بحثًا قصيرًا تافهًا مبتذلاً» [٢/٢٥٨].

تنوُّعٌ هجائيٌّ هائل طُعِّمت به السيرة، أحاطها بهالة قاتمةٍ، ومثيرةٍ، ومُرَّة.

٢- السُّخرية:

ولكنَّ الاقتدار الأسلوبي لم يكن ليقف عند حدِّ الألفاظ؛ لأن الدكتور ألحق بسيرته ظاهرتين بارزتين جدًّا. إحداهما: السخرية، وما يحوم حولها من أنواع. وكانت له سبلٌ في إيرادها.

من ذلك التلاعب اللفظي:

«وكان ما أطلق عليه آنذاك: «تأميم (= تعميم) الفقر» [١/١٦].

ومنه التقليل الشديد:

«وبعضهم لم يحصل إلا على ربع ليسانس» [١/١٥٦].

«عُيِّنوا معيدين في الدرجة السادسة» [١/١٥٦].

وأحيانًا يصرِّح بها:

«يا أجهل من أقلتهم الأرض» [١/١٦٦].

ويقول عن صحيفة كان يُصدرها عربيٌّ في فرنسا:

«ولست أدري مَنْ كان يقرؤها، وأغلب الظن أنه لم يكن يقرؤها أحدٌ غيره» [١/٢٣١].

ويصف رجال السلك السياسي المصري، ويسخر من بعضهم بهذه الجملة:

«وأهم ما يتباهى به الواحدُ منهم هو ملابسه، وكيف يراعي البروتوكول: في الوقوف والجلوس والسلام وترتيب الجلوس على موائد الطعام... إلى آخر هذه التفاهات، وكأن المثل الأعلى عند الواحد منهم أن يكون رئيس جرسونات!» [١/٢٤٩].

وربما استعمل أسلوب «ذُق إنَّك أنتَ العزيزُ الكريم»:

«وكان مصير نص المحاضرة، هو مصير نص المحاضرة السالفة الذكر: لقد ضاع نصها هي الأخرى في نفس «الغارة الظافرة» [٢/٥٥].

ويهْزَأُ بجمهور محاضرة:

«قام له الحاضرون وقوفًا وصفَّقوا له في حركة لم تخل من التهريج المسرحي» [٢٢٧/٢].

لقد كان هذا الصوت الساخر، صوتُ بدوي، مسموعًا بين الفينة والفينة، يهدئ من حركة السرد الدفَّاقة، ويُظهر عن جانبٍ جديد من جوانب هذه النفس المفعمة.

٣- التعجُّب:

وأفانينُ التعجب أخرى الظاهرتين. لقد جاءت هذه الأفانينُ حدًّا من حدود الفصل بين سياق السرد المجرد، وإقحام الآراء الذاتية. وهو إقحامٌ أدبي بديع، لا مباشرةَ فيه، ويعبر بوضوحٍ وجرأة عن مكنونات الضمير. ولقد صَدَرَ فيه عن مشارب:

فَمرَّةً يصرح بلفظ التعجب:

«فبعث بمقالات هزيلة سمجة تدل على جهله التام بباريس، وأنا أعجب لهذا الرجل... كيف تصدر عنه هذه التصرفات الصبيانية» [٢٠٢/١].

وهذا كثير، منتشر في أرجاء السيرة.

ومرَّةً يستلهم الأساليب العربية العريقة، فيستخدم (عباراتٍ سماعية) كما يسميها البلاغيون:

«كان يتبجح... بأنه يمثل أصحاب الجلاليب الزرقاء، ويا لهذا من كذب وقح» [١٣٧/١].

أو يستخدم ذلك الأسلوب القياسيّ، أسلوب: ما أفعلَه:

«وما أكثر الخشب المسندة» [١٥٤/١].

أو يستخدمه مبالغًا مهوّلاً:

«أما الشعبُ، فما أدراك ما الشعب!» [٩٦/٢].

ويلجأ – أحيانًا – إلى إجابة إنكار القارئ هكذا:

«وكانت وشايتهم تقول: إنني أدعو في محاضراتي إلى النزعة الفينيقيَّة!! إي والله الفينيقية» [١٦٦/١].

ومرةً يسأل سؤال المتعجب المنكر:

«فأيُّ مكابر – مهما بلغ من العناد يستطيع أن يجادل في هذا؟!» [٢١٣/١].

ولو بذلنا الجهد لتتبع (تعجبات) بدوي في السيرة لأرهقَنا التتبع، فما أكثرها!

ولعله كان يدرك غائر أثر هذا الأسلوب في إقناع القراء واستمالتهم، فبالغ فيه شدَّد عليه.

٤– الفُكاهة:

وكان من توابع ظاهرتي السخرية والتعجب هاتين، إضفاءُ جو الفكاهة والدعابة وخفة الظِّل. وحسبي من ذلك أن أذكر أمثلة قليلة:

«إن طلاب الليسانس مزعجون كالجراء الصغيرة على حد تعبير نيتشه...» [٥٣/٢].

وبعد أن نشرت «الأهرام» خبرًا عن مناقشة أطروحته التي كتبها عن (مشكلة الموت) حدَث الآتي:

«جاءتني رسائلُ عديدة من قراء كلهم في سنٍّ كبيرة، إذ صارت مشكلة «الموت» تشغلهم كل الشغل؛ وفيها يسألونني: هل وجدت حلاًّ لهذه المشكلة؟!» [١٥٥/١].

ويصنف أعضاء المؤتمرات تصنيفًا هزْليًّا مسرحيًّا:

«... ومنهم صنف يظل يغط في نومه طوال إلقاء البحث، ثم يفيق على ما يتلوه من تصفيق تقليدي، ولا يتورع عن إبداء ملاحظة أو أكثر على بحثٍ لم يسمعْ منه كلمة واحدة! وهو طبعًا يقول كلامًا لا معنى له، ولا صلة له بالبحث.

وقد يستظرف بعضهم نفسه –مع أن ظله أثقل من جبال الهملايا– فيتخذ من الوقت

المخصص للتعليقات فرصة لقول نكتة باردة ممجوجة لا يضحك منها أحدٌ غير نفسه – ويكون هذا هو كل ما يسهم به في هذا المؤتمر...» [٢٥٩/٢].

أرأيت الآن إلى هذه النَّسْمة المنعشة التي تسري في روح بدوي؟ كنت حريصًا على أن تراها.

٥- فنونٌ أخرى:

بقي أن أخبرَكَ –أيها القارئ العزيز– أن الرجل لم يُخْلص لغته لما مضى من السخرية والتعجب والفكاهة فقط، بل لقد ظهرت آياتٌ أخرى للبلاغة والبيان في سرده، جعلته سردًا قويًا سلسًا في آن ومنحته مزيدًا من الرونق والبهاء، ومزيدًا من الرضى والقبول عند المتلقي، في تحكم بديع بأسرار اللغة.

فهو لم يُخل السيرة من تشبيه الاستعارة:

«إنشاء كورنيش الإسكندرية بعد أن كانت هذه المدينة تُدير ظهرها للبحر المتوسط الرائع المنظر» [٤٧/١].

وعن روما يكتب في شاعريَّة:

«إن هذا الفيْضَ الوافر من الانطباعات قد هزَّ كياني كله هزًّا عميقًا حتى كدت أنهار تحت و طأته» [٧٦/١].

وله في الوصف شأوٌ لا يُلحق، وكم تردد كثيرًا بين جنبات السيرة:

«جبال الألب في إقليم التيرول وقد كستها غابات شاسعة من الصنوبر والشوح والشربين، والقمم والأودية تستعد لاستقبال أشعة الشمس في لهفة وقشعريرة، وقطرات الندى تتلالأ على الأوراق الإبرية... كأنها عقود متوالية من اللآلئ الصافية» [٧٧/١].

وفي التحسر يتفنَّنُ، يقول:

«فواحسرتاه على لبنان الجميل الفاتن الذي عرفته...» [١٧٧/١].

«وليت شعري، ماذا كانت حال هذا الميدان أيام ديكارت» [٢٩٤/١] عن ميدان بأمستردام.

«لك الله يا مصر، فأنت لم تعرفي في كل تاريخك مثل هذا الذلِّ والهوان» [٩٠/٢].

«فوارحمتاه على الدكتوراهات التي حصل عليها أمثال ماسينيون...» [٢٠٤/١].

٦- جُمَل التَّسْويف:

وتلْفِتُ في سرد بدوي طريقةُ (الجمل التي تُعجِّل بالسرد)، يقول:

«وإمضاء هذا الوقت في الحقول وممارسة بعض شؤون الزراعة قد ولدا في نفسي حب الأرض الزراعية، وسيكون لهذا أثره في توجيه تصرفاتي...» [٢٢/١].

«انعقدت بين الدكتور طه حسين وبيني أواصر... على النحو الذي سأفصِّله في حينه...» [٥٨/١].

«... وسأسمع في هذه الباحة حفلة موسيقية...» [٧٣/١].

وليس غريبًا أن يذهب ذاهب إلى أن أمثال هذه الجمل عيبٌ في السرد؛ لأنها تقطع على القارئ، وتفسد المفاجِئات. ولكنه قد يصحُّ القول: إن هذه الجمل تزيد من الفضول والإثارة، وتحث على المواصلة في القراءة، وهذا ما أرجحه هنا من أسلوب بدوي.

٧- علامات الترقيم:

أما علامات الترقيم فبالغة الأهمية في الكتابة الحديثة، وقد استغل ذلك بدوي أيَّما استغلال، وما الأمثلة الكثيرة الواردة في هذه البحث إلا شواهد واضحة على توظيف بدوي لها.

فهو يستخدمها لإيضاح ما ينكره قلبه دون التصريح به بلسانه:

«حتى إذا كانوا على بُعد مئة متر من المقبرة هرولوا بالنعش، فيقول عامة الناس: إن النعش «طار» به وكان هذا دليلاً على صدق ولايته!»

إن الأهلَّة التي تحيط كلمة: طار، لتعني أنه ينكر ذلك، ويهزأ به، ولا تنس أن تلمح علامة التعجب [!] آخر الفقرة.

وكثيرًا ما تُعينه هذه العلامات في التوضيح والتفسير، استغناءً عن الكتابة:

«أيها البارثنون (= في اليونانية: غرفة الفتيات)! ...» [١/٧٢].

وعلامات التعجب–وبه يتميز– أكثر من أن تُحصى. وهي في مواضعها تجلو المعنى، وتُرسِّخه، وتقود إلى إقناع المتلقي واستمالته.

وفي السخرية يجلب الهلالين، ويكتفي:

«هكذا كتبها والله هذا الكاتب «الكبير» » [١/٢٠٢].

ولم يُغفل كذلك الإفادة من العلامات الأخرى كالنقط، والفواصل بنوعيها، وعلامة الاستفهام، وعلامة المعنى [=]... ما يدل على ثقافة الكتابة المحدَثة، في كُتب بدوي.

ثالثًا: سِيرَةٌ وَانْفَتحَتْ (دراسة في ما بعد السيرة):

١– الآراء في السيرة:

ما إن صدرتْ سيرةُ عبد الرحمن بدوي حتى اختلف الناس حولها بين رافضٍ، ومغتبطٍ، وبينهما.

الرافضون كانوا الفريق الأكثر، ومثَّلوا رفضهم هذا في مقالاتٍ وكتبٍ، وآراء شفهية. مثالٌ من ذلك ما نشرته صحيفة (الشرق الأوسط)[١] للكاتبة بدرية البشر، تحت عنوان: سيرة وانفتحت، ومنه استعرتُ عنوان هذا الفصل.

تُبدي الكاتبة في مطلع المقال عن خَيبة أملها: «فقد ظننتُ أنه بعمله [تعني بدوي] الطويل في الفلسفة سيكتب عن بحور الفلسفة العالمية وأسرارها...».

---

(١) صحيفة الشرق الأوسط: عدد ٩٨٢٣، الخميس ١٨ رمضان ١٤٢٦.

ثم تمضي ذاكرةً فقد بدوي للوفد ولسعد، فتوافقه في ذلك، لكنها تلمح من طرف خفي عدم موافقة لما كتب عن محمد عبده. ثم تقول: «فقط هتلر والحزب النازي حظي بمديح الدكتور بدوي الذي يصعب إرضاؤه... أما طه حسين فكل ما سحَر بدوي منه هو صوته، لكنه أُصيب بخيبة أمل كبيرة عندما حضر دروسه في الجامعة، ووصفها بأنها فقيرة وبائسة، وكل مؤلفاته انطباعية متناثرة، ولمحات قصيرة... وقد انتقد كثيرًا خوف طه حسين... المدهش أن بدوي وهو الذي درس الفلسفة ومرَّ بدروس علم النفس لم يعرف شيئًا عن ما يسمى (الرُّهاب) ... وما حملني على طوي [كذا] سجادة صبري، والجزم بأن الدكتور عبد الرحمن بدوي اتخذ مواقف متشددة وضيقة الرؤية هو أن مذكراته لم تترك خصومة مع أحد إلا وأدرجها... وعلى الرغم من ذلك فإن كتابة الدكتور عن سيرته يتجلى في معظمها وهو حاقدًا [كذا]، غاضبًا [كذا]، حانقًا [كذا]، لم ير في الدنيا ما يسر... فليست هذه أخلاق الفلاسفة، جلها خصام، وتحزب للنازية حتى بعد أن تحررت مصر».

هذا المقال مثالٌ معبر عن تيارٍ جارف كتب عن سيرة بدوي. وهو مثال جيدٌ للذي تحويه كثير من هذه الكتابات من اعتراض ونقد.

تحدثت الكاتبة غيرَ مرة عن توقُّعها أن سيكتب الدكتور عن الفلسفة وبحورها ... ثم أنهت مقالها بأن ما سرده يخالف أخلاق الفلاسفة. وغنيٌّ عن القول أن من يكتب سيرته لا يرتجي منه التفصيلُ في شؤون العلم، وإلا لما كانت سيرةً (ذاتية)، وهذا أمرٌ لا مراء فيه.

ثم، ما هي أخلاق الفلاسفة التي أشارتْ إليها الكاتبة؟!

أمَّا أن هتلر وحزبَه هم فقط من حظي بمديح الدكتور، فهذا غير صحيح ولا تقوله السيرة قط. إن قراءة سريعة للفصل الأول من هذا البحث تؤكد نقيض ذلك.

والأمر نفسه في موقف الدكتور من أستاذه طه حسين، حيث تذكر الكاتبة أن ما سحره منه هو صوته، ثم كال له الذم. وهذا اجتزاءٌ لبعض الكلم. فإن مجموع موقف بدوي من طه حسين في السيرة يدل على احترام، وتبجيل، ومعرفة بالجميل. وفي مقام النقد كان بدوي يغلِّف عباراته بأسلوب رقيق، لم يتَّبعه مع غيره.

أَنْ يكون الضجر بالسيرة سببه تنوُّع الخصومات، فهذه علَّة مدهشة؛ لأن لكل امرئ حياتَه، وأحداثه، ومشكلاته. ولا ضير أن يكون رجل كبدوي ذا علاقات معقَّدة...

هكذا جاء نقد «سيرة حياتي» في هذا المقال: ضبابيًّا، يخلط شيئًا بشيء، أو يضع يده على البقع السوداء دون غيرها، مع أن النقد من شروطه سَعةُ الأفق، والأناةُ، والتجرد، أو قل: العدل.

تمثل الاتجاه الثاني مقالةٌ لحسونة الصباحي، نشرها في الجريدة عينها، لكن قبل ذلك بخمس سنين، هذه فِقَرٌ منها(١):

«... وقد وجد المهرجون والغوغائيون الذين تكاثروا خلال السنوات القليلة الماضية بسبب الخراب الثقافي... في سيرة د. عبد الرحمن بدوي ما يرضي نزعاتهم السادية والتدميرية والتخريبية فراحوا يملؤون الأرض زعيقًا، ناعتين صاحبها بأقبح النعوت... محاولين الحط من شأنه هو الذي أمضى قرابة الستين عامًا في خدمة الثقافة العربية... والذي يقرأ مقالات وردود هؤلاء... يتبين له أن الهدف الأساسي للدكتور عبد الرحمن بدوي من خلال سيرة حياته هو الحط من شأن الآخرين... مقابل ذلك هو لم يفعل حسب رأيهم غير تعظيم شأنه... والحقيقة أن هذه الاستنتاجات التي توصل إليها أصحابنا سخيفة وسطحية وخالية تمامًا من الصحة... بل يمكن القول: إن هذه الاستنتاجات تعطي الدليل القاطع على أن أصحابها لا يُحسنون القراءة... إن سيرة الدكتور عبد الرحمن بدوي وثيقة نادرة عن أحوال الثقالة والسياسة في العالم العربي خلال القرن العشرين».

ولكنَّ هذا الاتجاه– على ما فيه من غلوٍّ– قليلٌ ضمن مَنْ يكتب عن سيرة بدوي. وتجدر الإشارة إلى أن هذه المقالة لم تخلُ كذلك من تعميم: فبدوي كما سبق الدرس حقَّر من شأن قوم، لا شك في ذلك. وكان كذلك مفخِّمًا شأنَ نفسه.

المقالة الثالثة الممثلة للاتجاه الذي يزعم التوازن عنوانها: ظاهرة عبد الرحمن بدوي:

---

(١) جريدة الشرق الأوسط: عدد ٨٠٩٣، الأربعاء ٢٩ شوال ١٤٢١هـ.

آلة الفلسفة، الادعاء والاهتمام بالكم على حساب الإبداع الحقيقي، لسعيد توفيق[1]، يقول فيها: «في حياتنا الثقافية رموزٌ فكرية، تحولت إلى أصنام نقدسها، ولا يجرؤ أحد على المساس بها؛ لأنها اكتسبت سلطة فكرية يسلم الناس بها دون وعي... ولا شك أن عبد الرحمن بدوي... من هذا النوع... والحقيقة أن الكلام عن عبد الرحمن بدوي... محفوف بالمخاطر؛ لأنه يمكن أن ينزلق – كما يحدث عادة – إلى الحديث عن الشخص... ويبدو أن الاهتمام بالكم مسألة متأصلة في تكوينه الفكري، وفي نظرته إلى نفسه، وتقييمه الذاتي لما أنتجه... فهو في سيرته الذاتية يؤكد على قيمة كتابه عن «إمانويل كانط» المؤلف من أربعة أجزاء... وهو على سبيل المثال يتحدث عن بلدته «شرباص» كما لو كانت مركز الكون...».

وفي هذه المقالة نزعةٌ إلى النقد العلمي الذي ليس الحديث بصدده بذاته، ولم يتطرَّق كثيرًا إلى النوازع النفسية والشخصية. لكن من صفاته أنه نقدٌ قائم على التعليل أيًّا كانت النتائج التي يصل إليها.

ونجد كاتبًا آخر يُثني على روح الاعتراف والفضح التي انتهجها بدوي، ويرى أننا بحاجة إلى عبد الرحمن بدوي آخر[2]. وهذا نوع جديد من الكتاب يطمئن إلى الإثارة والمتعة، ويحفل بالتشهير.

لقد رغبتُ من خلال هذا العرض إلى رسم صورة، ولو صغيرة عن الدويِّ الذي تركته هذه السيرة في الأوساط الثقافية التي تمثلها الصحافة إلى حدٍّ ما. ورغبتُ أيضًا إلى عرض شيء من المحتوى الذي سرى خلال هذه الآراء.

٢- مسألة المَصَادر:

(١) نشرت بمجلة نزوى، العدد السابع والثلاثون ٢٠٠٩/٧/٢٦، مسقط.

(٢) انظر: مقالة «أدباؤنا لا يعترفون» لعلي سعيد القحطاني (مجلة الثقافية، ملحق بجريدة الجزيرة السعودية: عدد ٦٨، الاثنين ٢ جمادى الآخرة ١٤٢٥هـ).

لابد من وقفة مع طريقة صاحب السيرة في التعامل مع المصادر في هذه السيرة:

فقد لوحظ أن الدكتور لم يُحل في الجزء الأول إلى أي مصدر، وهذا نهج لا عيب فيه إذا كانت المعلومات المنقولة عفوَ الخاطر، خاصة في سرد السيرة. لكن الأمر ليس كذلك في كثير مما جاء في الجزء الأول منها؛ فهو يسوق تفاصيل غاية في الدقة لا يُتصور أن يحتفظ بها ذهنُه، من أرقام أو جداول. وارجع مثلاً إلى حديثه عن هولندة [١/٢٨٤] لتعلم أنه لابد ناقلٌ عن كتابٍ معلومات وأرقامًا تربو على عشرين صفحة، لكنه لم يذكر مصدرًا.

إن أول ذكر لمصدر نلقاه في الجزء الثاني، يقول:

«لكن الإنصاف يقتضينا أن نعرض وجهة نظر الاتحاد السوفيتي على لسانه هو كما جاء في كتاب «تاريخ السياسة الخارجية للاتحاد السوفيتي... سنة ١٩٧٤» [٢/٧٣].

الملحوظة الثانية أن جُلَّ النقل الذي لم يُحل إليه في الجزء الأول نقلٌ عن مصادر أجنبية لا يعرفها القارئ العربي، فهل وثق الدكتور من عجزه أن يحيط بها فلم يُحل، بينما أحال في الجزء الثاني أحيانًا إلى ما يمكن للقارئ أن يَخْبُره، كدائرة المعارف الإسلامية [٢/١١٨]، وتاريخ ابن خلدون [٢/١١٧]. وكتاب «الإمام الحاكم» تأليف أحمد الحسيني أشكواري سنة ١٩٦٤ [٢/٣٠٧- ٣٠٨]...؟

لا ريب في أن تلك ثغرةٌ من ثغرات السيرة.

على أن طريقة الدكتور في سائر كتبه تقييدُ المصادر التي يصدر عنها سواء في ترجماته، كترجمته لتراجيديات سفوقليس[١]، أو فاوست[٢]، أو دون كيخوته[٣]. أو كتبه:

---

(١) انظر: ترجمة تراجيديات سوفقليس ص: ٥، ١٢، ١٦،١٨ ... (المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط١/١٩٩٦م).

(٢) انظر: ترجمة فاوست ص: ٨، ٩، ١٠... (سلسلة المسرح العالمي، وزارة الإعلام، الكويت، يناير ١٩٨٩م).

(٣) انظر: ترجمة دون كيخوتة ص: ٦، ٨، ١١، ١٢، ١٣... (دار المدى، أبو ظبي ١٩٩٨).

كالإنسانية والوجودية[1]، أو دراسات ونصوص في الفلسفة والعلوم عند العرب[2]، على سبيل المثال.

غير أن الدكتور لم يُلْحق بكتبه هذه كلِّها ثَبَتًا بالمصادر.

خاتمة:

حاولتُ أن ينتهي هذا البحث إلى ثمرةٍ ناضجة، لذيذة وإن لم تُشبِعْ؛ لأنني سئمت حين قرأت دراسات كثيرة لم أبرحها بغلة. وحسبي أن كشفت في هذه الدراسة عن شيئين: أنفاسٍ مختلفات من روح بدوي، كان سبيلي إليها الجمع لا الاجتزاء، والصبر ولو فزت بالقليل، لكنني فزت، وأتمنى أن تكون أنت كذلك. وكشفتُ عن أسرار لمعان الأسلوب، وجاذبيته، على أنني لم أَقْفُ ذلك اللمعان كلَّه. ثم إنني أضفْتُ أثر ما بعد السيرة.

لقد طُفنا مع عبد الرحمن بدوي في أرجاء سيرته التي قصَّت لنا تاريخ هذا الأديب المتفلسف، أو الفيلسوف المتأدِّب، فوقفنا على مضامين السيرة، التي جرتنا إلى الحديث عن الإسهاب لديه، وعن الذاتية البادية، وعن حُبِّه، وغايته من السَّرد، وتحدثنا عن سمات الذوق العالي والثقافة العالية التي نُطالع آثارها في كل صحائف السيرة. ثم عرَّجنا على هيكل السيرة ومفاصل بنائها الأسلوبي، فنظرنا في ألفاظ اللغة، واستقرأنا أسلوب السخرية التي ميَّز كتابَته، وانتقلنا منه إلى التعجب، وروح الفكاهة، وبعض الفنون الأخرى. ولفتَنا استعمال بدوي المفيدُ لجمل التسويف، وحُسْنُ توظيفه لعلامات الترقيم، وفي آخر الأمر تناولنا الآراء في هذه السيرة ما بين منافحٍ ومشنِّع، ثم ختمنا هذا البحث بكلامٍ لا بد منه عن المصادر.

لقد انتفعت من هذه الحياة السردية الهائلة بمنافع كثيرة، فكان أن كتبتُ متأثرًا بعد الفراغ منها: «لقد هيَّجت هذه السيرةُ العظيمة في نفسي مشاعر شتى، نقلتني –لا جرم–

---

(١) انظر: الإنسانية والوجودية في الفكر العربي ص: ١٧، ١٨ (مكتبة النهضة المصرية، القاهرة ١٩٤٧م).
(٢) انظر: دراسات ونصوص في الفلسفة والعلوم عند العرب ص: ٤٢، ٥٥، ٨٤ (المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط ١٩٨١/١م).

من طور إلى طور. ولسوف أحفظ للدكتور بدوي –رحمه الله– هذه الأثيرةَ ما حييت».

المراجع

أولاً: كُتُب الدكتور عبد الرَّحمن بَدَوَي وترجماته:

- الإنسانية والوجودية في الفكر العربي، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة ١٩٤٧م.
- الحور والنور، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة ١٩٥١م.
- دراسات ونصوص في الفلسفة والعلوم عند العرب، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط١/١٩٨١م.
- سيرة حياتي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط١/ ٢٠٠٠م.
- مرآة نفسي: ديوان شعر، ١٩٤٦م.
- ترجمة: تراجيديات سوفقليس، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط١/١٩٩٦م.
- ترجمة: دون كيخوتة، دار المدى، أبو ظبي ١٩٩٨م.
- ترجمة: فاوست، سلسلة المسرح العالمي، وزارة الإعلام، الكويت، يناير ١٩٨٩م.

ثانيًا: الكُتُب الأخرى:

- اعترافات جان جاك روسو، المؤسسة العربية الحديثة، القاهرة (مطبوعات كتابي).
- السيرة تاريخٌ وفن، للدكتور ماهر فهمي حسن، مكتبة النهضة المصرية، ط١/١٩٧٠م.
- السيرة الذاتية في الأدب العربي، لتهاني عبد الفتاح شاكر، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط١/٢٠٠٢م.
- عبد الرحمن بدوي: فيلسوف الوجودية الهارب إلى الإسلام، لسعيد اللاوندي (مركز الحضارة العربية بالقاهرة ٢٠٠١م).

• عبد الرحمن بدوي: دراسات مهداة في عيد ميلاده الثمانين، بإشراف الدكتور أحمد عبد الحليم عطية، (الهيئة العامة لقصور الثقافة ٢٠٠٢م).

• العلماء العزَّاب الذين آثروا العلم على الزواج، لعبد الفتاح أبو غدة، مكتب المطبوعات الإسلامية، حلب، ط٢/١٤٠٣هـ.

• فن السيرة، للدكتور إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ط١/١٩٩٦م.

• فن التراجم والسِّيَر الذاتية، لأندريه موروا (ترجمة وتقديم وتعليق الدكتور أحمد درويش، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة ١٩٩٩م).

• في طفولتي: دراسة في السيرة الذاتية العربية، لتيتز رووكي (ترجمة طلعت الشايب، المجلس الأعلى للثقافة، ط١/٢٠٠٢م).

• الكتابة والوجود: السيرة الذاتية في المغرب، لعبد القادر الشاوي، دار إفريقيا الشرق، المغرب ٢٠٠٠م.

• نظريات السرد الحديثة، والاس مارتن، ترجمة حياة جاسم محمد، المجلس الأعلى للثقافة ١٩٩٨م.

ثالثًا: الدَّوريَّات:

• صحيفة الشرق الأوسط اللندنية، عدد ٨٠٩٣ ، ٢٩ شوال ١٤٢١هـ.

• مجلة الثقافة: ملحق صحيفة الجزيرة السعودية، عدد ٦٨ ، ٢ جمادى الآخرة ١٤٢٥هـ.

• مجلة نزوى، العدد السابع والثلاثون ٢٠٠٩/٧/٢٦، مسقط.